المحاضرة الخامسة : عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح في الجزائر

د. مراد بن حمودة

1- المولد والنشأة:

ولد بمدينة قسنطينة ليلة الجمعة 11 ربيع الثاني 1307 الموافق ل 04 ديسمبر 1889م وكان الإبن البكر لوالديه والده هو محمد مصطفى بن مكي بن باديس وأمه هي زهيرة بنت علي بن جلول من أسرة عبد الجليل الشهيرة في قسنطينة، أما والداه فكان من أعيان قسنطينة ووجهائها عضوا في المجلس الجزائري الأعلى والعام بالإضافة إلى عضويته في المجلس العمالي، بالإضافة إلى اشتغاله بالفلاحة والتجارة.

بدأ عبد الحميد التعلم في الكتاب القرآني ككل الأطفال على يد الشيخ محمد المداسي حفظ القرآن وعمره ثلاثة عشر سنة، قدم لصلاة التراويح في رمضان بالجامع الكبير سنتين أو ثلاث، تلقى مبادئ العلوم العربية والاسلامية بجامع سيدي عبد المؤمن على مشائخ من أشهرهم العالم الجليل الشيخ حمدان الونيسي ابتداء من عام 1903، عند بلوغه سن الخامسة عشر زوجه والده بإحدى قريباته التي أنجب منها والدا سماه اسماعيل عاش حتى حفظ القرآن لكنه توفي في حادث مفاجئ يوم 15 رمضان عام 1337 هـ الموافق ل 14 جوان 1919م .

نظرا لما كان يبدو عليه من فطنة ونباهة وميل إلى الجد في فترة التعلم التي سبقت ذهابه إلى تونس حرص أبوه على إرساله إلى جامع الزيتونة ليكمل تعليمه، فسافر إلى تونس سنة 1908م وبعد ثلاث سنوات تحصل على شهادة التطويع عام 1911م إذ تحصل على الرتبة الأولى في تلك الدفعة، بقي بعدها سنة يدرس ويدرس على عادة المتخرجين على ذلك العهد، وهناك في تونس تعرف على كبار العلماء من أمثال الشيخ: محمد الصادق النيفر قاضي الجماعة، ومحمد الطاهر بن عاشور شيخ الاسلام والعلامة الخضر بن الحسين الجزائري التونسي. بعد إكماله لتعليمه عاد إلى الجزائر استقبله والده ثم والدته بزغاريد تعبيرا عن فخرهم بابنهم وبقي عبد الحميد يتذكرها ويذكرها لطلابه دائما حيث قال " إن تلك الزغرودة التي قابلتني بها أمي يوم عدت من تونس ما تزال ترن في أذني، ولن أنساها ما حييت"، بعد استقراره في تونس انصب للتدريس مبتدئا بتعليم الاطفال الكتاتيب القرآنية.

خلال هذه الفترة كان عبد الحميد يرى ويتأمل كل ما يحيط به، كان يتألم للأوضاع التي يعيشها مجتمعه والتي تتجلى في الفقر والجهل والتشرد والحرمان والانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي، وانتشار البدع والتؤيلات الخاطئة وجمود العلماء وتفرق كلمتهم، واضطهاد اللغة العربية والدين والتاريخ واعتبارها أشياء محرمة في المدراس الرسمية، يضاف إلى ذلك محاولة التنصير والتجنيس التي كانت تعتمد الاغراءات والمغالطات بهدف انتزاع الاسلام من قلوب الجزائريين، وتضييق مجال التعليم الممنوح للجزائريين، فلقد كان هذا الأمر يؤلمه هذه الأمور وغيرها أثرت في تفكيره ودفعته إلى التفرغ إلى العمل الاصلاحي

Mourad benhamouda

والمقاومة الفكرية وتربية الناشئة تربية صحيحة تعيد لهم الثقة بأنفسهم وتجعلهم قادرين على مواجهة الاستعمار والوقوف أمام أساليبه لذلك عزم على النهوض بهذه المهمة وتصميم مشروع متكامل يتكفل بإحداث ثورة في النفوس وتعبئة شاملة للمواطنين تتجه للكبار والصغار وللمثقفين والأميين، واستخدام كل الوسائل التي تخاطب العقل والروح والوجدان.

انطلقت الجهود الأولى عام 1913 من الجامع الكبير جيث بدأ يدرس بعض الطلبة وكان الكتاب الذي يركز عليه هو كتاب الشفاء للقاضي عياض، أما العامة فكان يقدم لهم دروس في الوعظ والارشاد لكن بسبب مشكل بينه وبين المفتي المولود بن الموهوب أدى إلى توقفه عن التدريس ليفكر في الهجرة من جديد ولكن هذه المرة اختار أن يحج إلى بيت الله

رحلته إلى الحجاز: سافر ابن باديس سنة 1913 وبعد أداء مناسك الحج زار المدينة المنورة حيث التقى بأستاذه حمدان الونيسي وتعرف على بعض العلماء أمثال الشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، والشيخ الوزير التونسي، وألقى بحضورهم درسا أعجبوا به وقد أبدى رغبة في البقاء لكن الشيخ أبادي الهندي اعترض على ذلك قائلا له : " ارجع إلى وطنك يا بني فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك " في المقابل حذره أستاذه أن يكون عبدا للوظيفة قائل له " احذر أن تقبل الوظيفة الحكومية فهي قيد لك يحد من نشاطك" .

حرص ابن باديس خلال هذه الرحلة على الاتصال بالمفكرين والعلماء للتحاور معهم والاطلاع على أحوال المسلمين ومقارنتها ببلاده، دفعه هذا الاتصال إلى التفاعل مع الحركة الاصلاحية التي انتشرت على يد كل من الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا متأثرين زعيم الاصلاحيين جمال الدين الأفغاني وبالحركة السلفية التي انتشرت في الحجاز ، وخلال اقامته في الحجاز تعرف على شاب مثله بنفس طموحه ألا وهو البشير الابراهيمي المقيم مع والديه في المدينة المنورة ، كانا يتناقشا حول ضبط الخطة الإصلاحية التي يمكن ضبطها لعلاج الأوضاع المتردية في الجزائر واتفقا على خدمة بلادهما والعودة إليها. في طريق العودة عرج على الشام والاسكندرية والقاهرة واتصل بالعديد من العلماء والمفكرين حيث لقي في الاسكندرية العامل أبا الفضل الجيزاوي وأيضا الشيخ محمد بغيت المطيعي رفيق محمد عبده.

2- النضال الإصلاحي:

- **التعليم المسجدي :**

عاد الشاب عبد الحميد ابن باديس إلى بلاده بعد الرحلات العلمية التي قادته إلى كل من تونس والحجاز والشام ومصر عاد إلى بلاده بعد أن تفتح ذهنه على بعض الأفكار ومحاورة العلماء والمصلحين والمفكرين عاد وفي ذهنه مشروع كبير صممه في رفيقه البشير الابراهيمي، إن الخطة التي اتبعها من البداية تتركز على مجالين: هي تعليم الطلاب المتفرغين لتلقي العلم، وتعليم العامة وتثقيفهم، أما التعليم الموجه للأطفال فقد أوكله لبعض طلابه ولكي لا يتكرر نفس الذي حدث له مع الشيخ المولود بن الموهوب حيث استصدر له والده رخصة رسمية من الوالي تسمح له أن يدرس بالمجان في الجامع الأخضر، وهكذا

Mourad benhamouda

بدأ التدريس فنظم دروس للعامة وأخرى خاصة بالطلبة الوافدين يلقى بعضها في الجامع الأخضر والبعض الآخر في مسجد سيدي قموش وكان من دروسه تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من الموطأ.

أصبح الجامع الأاخضر قبلة للطلبة الوافدين فجعله فيما بعد معهدا علميا ينتسب إليه طلبة العلم وفق شروط تنظيمية ويتلقون فيه فنون المعرفة حسب البرنامج المسطر لكل مستوى من المستويات الأربع يحصل الطالب بعدها على تقدير اعتباري يخول له الانتقال إلى تونس لإكمال دراسته أو الانتصاب للتدريس، مما يلاحظ أن الشيخ بن باديس كان يضطلع بهذه الادوار وحده .

- **إنشاء أول مدرسة عربية:**

بعد أن وضع السكة لمشروع التعليم المسجدي اتجه ابن باديس إلى الخطوة الثانية ضمن مشروعه التربوي الاصلاحي هو تعليم الأطفال الذين بلغوا سن التعلم ولم يجدوا لهم مكانا في المدارس الحكومية أو الذين يدرسون في هذه المدارس ولكنهم بحاجة إلى تعلم لغتهم ومعرفة دينهم وتاريخهم، فأسس سنة 1926 أول نواة للتعليم الابتدائي الحر حيث أنشأ مدرسة بمسجد سيدي بومعزة وأطلق عليها اسم المكتب العربي وأسند إدارتها لأحد طلابه ألا وهو الشيخ مبارك الميلي ثم نقلها إلى مقر الجمعية الخيرية لاتساعه وشكل هيئة للاشراف عليها سماها " جمعية التربية والتعليم الاسلامية". مما تجدر الإشارة إليه أن النشاط التعليمي لم يكن نشاطا تعليميا عاديا يستهدف فقط تلقين المعرفة وإنما كان له هدف أسمى غذا كان يسعى إلى بناء جيل جديد يحمل الفكرة الإصلاحية وينشرها ويداافع عنها كما كان يسعى إلى التعليم نفسه.

- **التجول في القطر الجزائري:**

لم يكتفي الشيخ عبد الحميد بن باديس بالدروس التي يقدمها للطلبة والعامة بل كان يقوم في العطلة الصيفية وفي أيام الراحة الأسبوعية بجولات استطلاعية في القطر الجزائري يتعرف فيها على أحوال البلاد والعباد ويلقي الدروس في المساجد والزوايا وحيثما تيسر له ويعلن عن نشاطه التربوي وعن الدروس العلمية ويطلب من شيوخ الزوايا الذين يحضرون دروسه ومحاضراته أن يرسلوا أبناءهم وطلابهم للتعلم في قسنطينة

- **الاشتغال بالصحافة:**

أضاف الشيخ بن باديس إلى جهده التعليمي جهدا آخر ألا وهو تأسيس النشاط الصحفي الذي أراده سلاحا آخر يعتمده في معركته النضالية الذي صمم على خوضها بكل الوسائل، حيث رأى أن أفكاره الاصلاحية يجب أن تصل إلى عدد كبير من الناس، فبدأ يشتغل إلى جانب التعليم بالكتابة في الصحف وكانت جريدة النجاح التي يشرف عليها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي ومامي اسماعيل هي المجال الذي بدأ منه ممارسة العمل الصحفي وكان ذلك سنة 1919 وبعدها بدأ في التفكير في إنشاء صحافة عربية مستقلة خاصة به، وفي سنة 1925 أسس أول صحيفة سماها "المنتقد" والتي كان شعارها "الحق فوق

Mourad benhamouda

كل أحد والوطن قبل كل شيء" لكنها لم تستمر طويلا إذ أوقفتها الإدارة الاستعمارية بعد 18 عددا، فعوضها الشيخ بجريدة "الشهاب" والتي تحولت بعد أربع سنوات إلى مجلة شهرية واستمرت في توصيل رسالتها بأسلوب مرن وبلهجة معتدلة إلى أن توقفت من تلقاء نفسها في بداية الحرب العالمية الثانية.

- **تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:**

بدأت الفكرة تتخمر منذ سنوات 1924 وكان نادي الترقي بالعاصمة التي كانت تلقى به المحاضرات ويلتقي فيه المثقفون في كل المجال الحي الذي نمى فكرة إنشاء جمعية العلماء وهيأ المناخ الفكري لها، وقد دعا ابن باديس في صفحات جرية المنتقد إلى إتحاد العلماء وتجمعهم والاتفاق على خطة لإصلاح الأوضاع الدينية والتعليمية والاجتماعية والسياسية

- أول اجتماع لرواد الإصلاح: بعد اللقاءات المتعددة التي كانت تتم بين البشير الابراهيمي وعبد الحميد بن باديس تارة في سطيف وأخرى في قسنطينة بعدها فكر عبد الحميد أن يخطو خطوة عملية تكون تمهيدا لتأسيس جمعية العلماء ففي سنة 1928 يذكر الشيخ خير الدين في مذكراته أن الشيخ بن باديس دعا الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي لندوة يدرسون أوضاع الجزائر وكان ممن لبى الدعوة (البشير الابراهيمي، مبارك الميلي ، العربي التبسي، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد خير الدين) قدم الشيخ عبد الحميد خطته المبنية على :

- إنشاء المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والتربية الاسلامية
- الالتزام بالقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة
- الكتابة في الصحف والمجلات لتوعية طبقات الشعب
- إنشاء النوادي للاجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات
- إنشاء فرق الكشافة الاسلامية للشباب
- العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخضوع للحكم الأجنبي.

وفي سنة 1930 أسس ابن باديس في قسنطينة "جمعية التربية والتعليم الاسلامية" بعدها أرسل الشيخ البشير الابراهيمي وعبد الحميد بن باديس دعوة إلى كل علماء الجزائر من أجل الاجتماع في نادي الترقي يوم 5 ماي 1931ودام الاجتماع أربعة أيام لبى النداء حوالي سبعين عالم من أنحاء الجزائر ومن شتى الاتجاهات الدينية والمذهبية وهكذا تأسست يوم 05 ماي 1931 بنادي الترقي بالعاصمة "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " وتم انتخاب مجلس إداري للجمعية يتكون من ثلاثة عشر عضوا برئاسة عبد الحميد بن باديس والذي لم يحضر إلا في اليوم الأخير وبما أن أغلب الأعضاء ليسوا من العاصمة تم انتخاب لجنة للعمل الدائم تتألف من خمسة أعضاء برئاسة عمر اسماعيل، واطلق ابن باديس شعاره على الحركة الاصلاحية " الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا" قسم ابن باديس العمل حيث انتدب الطيب العقبي للاشراف على العمل في العاصمة وما جاورها وكلف الشيخ البشير الابراهيمي بأن يتولى الاشراف على العمل بالجهة الغربية من البلاد انطلاقا من تلمسان ، وأن يتولى عبد الحميد ابن باديس الاشراف على العمل في الجهة الشرقية انطلاقا من قسنطينة

Mourad benhamouda

وتنفيذا لما تضمنه القانون الأساسي تم احداث فروع ففي سنة الأولى تم تأسيس 22 شعبة وفي سنة 1936 بلغ عددها 33 شعبة أما في سنة 1938 فقد تطور عددها إلى 58 شعبة.

3- عبد الحميد ابن باديس والنضال السياسي :

لم يكن هدف بن باديس الخوض في المسائل السياسية البحتة لكن الوضع المتردي الذي كانت تعيشه البلاد والانتهاكات والمظالم التي كان يتعرض لها الشعب فرضت عليه أن يدخل هذا الميدان من مداخل مختلفة ومن الأمور التي تشكل الوجه السياسي في الخطة الباديسية والعمل الاصلاحي الذي أعطاه ابن باديس كل حياته المواقف التالية:

- ✓ **مجابهة الإدارة الفرنسية والدخول في صراع معها:** ومثال ذلك ما وقع سنة 1933 وذلك نتيجة قرارات ميشال الكاتب الإداري لوالي الجزائر الذي أعطى لنفسه حق مراقبة العلماء والمدرسين الأحرار ومنعهم من التدريس وإلقاء الوعظ في المساجد هذه الحادثة كانت سببا في استياء الشعب مما أدى إلى تنظيم مظاهرات واحتجاجات مما دفع الوالي باتهام العلماء ماجعل ابن باديس يرد عليه في ديسمبر 1935 في جريدة الصراط العدد 25، بين له فيه أن العلماء ماضون في طريقتهم التي وضعوها لأنهم يريدون خدمة العلم والدين ليضيف أن العلماء لا يجهلون السياسة ثم أن طريقها أيسر من طريق الإصلاح
- ✓ **الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي والمساهمة فيه :** لم يتأخر ابن باديس عن المشاركة في أي اجتماع يعقد لدراسة الوضعية في الجزائر والبحث عن السبل الكفيلة بإخراج البلاد من حالة اليأس والتذمر، وكانت مساهمته في المؤتمر الاسلامي 7 جوان 1936 أكبر خدمة قدمها للجزائر فقد كانت مساهمته أثر كبير في توحيد الصفوف وتقريب وجهات النظر وجمع الكلم على مطالب معينة، وقد استطاع رفقة رفاقه على توجيه قرارات المؤتمر بما يؤكد على الالتزام بالمحافظة على الشخصية الجزائرية والاتجاه العربي الاسلامي في الجزائر ومن أهم المطالب التي ألح عليها ابن باديس هي :
  - ترسيم اللغة العربية مثل اللغة الفرنسية والتعامل مع صحافتها مثل الصحافة الفرنسية
  - إعادة المساجد إلى المسلمين لإدارتها مع تخصيص ميزانية مناسبة لها تتناسب مع قيمة الأاوقاف التي سلبت منها
  - تنظيم القضاء الاسلامي ووضع مجلة الأحكام الشرعية تحت إشراف هيئة متخصصة من العلماء
  - تأسيس كلية لعلوم الدين واللغة العربية.
- ✓ **دعوة النواب إلى مقاطعة المجالس النيابية**
- ✓ **محاورته للجنة البحث البرلمانية**
- ✓ **الدعوة إلى مقاطعة الاحتفالات الفرنسية بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة**
- ✓ **مقاومة سياسة الاندماج والتجنس**
- ✓ **رأيه في الحرية والاستقلال**
- ✓ **دوره في إخماد نار الفتنة بين اليهود والمسلمين في قسنطينة 1934**

Mourad Kerriamoudia

ظل ابن باديس يجاهد بفكره ولسانه وقلمه في جبهات عديدة في مجال التعليم والصحافة والسياسة والاصلاح الديني والاجتماعي والدعوة إلى الايمان الصحيح ومقاومة البدع والخرافات ومحاربة الظلم والفساد والوقوف في وجه القوانين الجائرة هذا هو الرجل الذي عرفته الجزائر عالما عاملا، وفقيها مجتهدا، ومربيا مخلصا، ومصلحا، وسياسيا، وإماما.

هكذا عاشابن باديس محبا لبلاده ووفيا لها مدافعا عن شخصيتها وظل على هذا الوفاء إلى وافته المنية يوم 16 أفريل 1940 وهكذا فارق الجزائر في أوج عطائه وقد رثاه شاهر الجزائر محمد العيد آل خليفة في قصيدة كتبت على لوح رخامي على قبره :

يا قبر طبت وطاب فيك عبير هل أنت بالضيف العزيز خبير

هذا ابن باديس الإمام المرتضى عبد الحميد إلى حماك يصير

العالم الفذ الذي لعلومه صيت بأطراف البلاد كبير

بعث الجزائر بعد طول سباتها فالشعب فيها بعد الحياة بصير

Mourad benhamouda